STARDOM UNIVERSITY

SDU

جامعة ستاردوم

مجلة ستاردوم العلمية للدراسات الإنسانية والاجتماعية

مجلة ستاردوم العلمية المحكمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية

تصدر بشكل ربع سنوي عن جامعة ستاردوم

العدد الثالث - المجلد الثالث 2025م

رقم الإيداع الدولي: ISSN 2980-3772

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هيئة تحرير مجلة ستاردوم العلمية للعلوم" الإنسانية والاجتماعية "

رئيس التحرير

أ.د. يسن إبراهيم بشير علي - السودان

مدير التحرير

د. أمحمد واحميد - المغرب

المدقق اللغوي

د. باسم الفقير - الأردن

أعضاء هيئة تحرير

د. ناجي محمد حامد - السودان
د. عبد الرزاق القيمة - المغرب
د. ماهر جاسب حاتم الفهد - العراق
د. عبد العزيز إبراهيم مناضل - المغرب
أ.د. ميرفت صدقي عبد الوهاب - مصر

الهيئة الاستشارية

أ.د. إسماعيل محمد مونتانا - أمريكا
أ.د. عوض إبراهيم عوض - السودان
أ.د. حاتم عبد الرحمن الطحاوي - مصر
أ.د. بلقاسم محمد حمام - الجزائر
أ.د. عمر أحمد المصطفى حيّاتي - السودان
أ.د. كامل قريد سمير بن محمد - الجزائر
أ.د. نضال محمد الشمالي - الأردن
أ.د. خالد محمد الخولي - مصر
أ.د. محمد نجيب بوطالب - تونس
أ.د. علي عبد الهادي عبد الله المرهج - العراق
أ.د. محمد أبو الحسن مختار - السودان
أ.د. عزّة محمد جدُّوع - مصر
أ.د. هشام بن الهاشمي - المغرب
د. البكاي ولد عبد الملك - موريتانيا
أ.د. أحمد يحيى الزهيري - العراق

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لمجلة ستاردوم العلمية للعلوم الإنسانية والاجتماعية

الخطاب الشعري للفيتوري في سياق نظرية ما بعد الاستعمار

The poetic discourse of Faytouri in the context of postcolonial theory

أ.د. يسن إبراهيم بشير علي

أستاذ الأدب والنقد_ جامعة ستاردوم

Prof. Yasin Ibrahim Bashir Ali

Professor of literature and criticism _ stardom University

بريد إلكتروني:

ysn3ysn71@gmail.com

lang-dean@stardomuniversity.edu.eu

الجوال:

00905352946073

00966508111516

المستخلص:

قام هذا البحث على فكرة مؤدّاها أنّ نظريّة ما بعد الاستعمار (Postcolonial Theory) التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين، ونظّر لها نقّادٌ بارزون، أمثال: إدوارد سعيد، وهومي بابا، وغاياتري سبيفاك، هذه النظرية لها حضور في الشعر والرواية. فمن بين الشعراء العرب الذين برزت أفكار هذه النظرية في خطابهم الشعري محمد مفتاح الفيتوري، الذي عُرِف بثوريته، ورفضه للهيمنة والاضطهاد. من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي هدفت إلى اختبار هذا الخطاب الشعري وما تضمنه من أفكار ومبادئ اشتملت عليها نظرية ما بعد الاستعمار.

تتنزّل الدراسة في حقل الدراسات الثقافية التي تجمع بين الأدبي والثقافي والسياسي والإيديولوجي فتقارب العلاقة بين خطاب الفيتوري الشعري والمبادئ التي أرستها نظرية ما الاستعمار، مستفيدةً من آليات الوصف والتحليل.

وقد خلصت الدراسة إلى أن الخطاب الشعري للفيتوري حوى العديد من الأفكار التي قامت عليها نظرية ما بعد الاستعمار، تمثّلت في رفض والمقاومة للاضطهاد والهيمنة الاستعمارية، واستعادة الهوية والذات الأفريقية، وتصوير التابع وتحولاته.

الكلمات المفتاحية: الفيتوري، ما بعد الاستعمار، المقاومة والرفض، الهوية الأفريقية، تحوّلات التابع.

Abstract:

This research was based on the idea that the postcolonial theory, which appeared in the second half of the twentieth century, and was considered by prominent critics, such as Edward said, Homi Baba, and Gayatri Spivak, this theory has a presence in poetry and novels. Among the Arab poets whose ideas of this theory emerged in their poetic discourse was Muhammad Miftah Al-Faytouri, who was known for his revolution, his rejection of domination and oppression. Hence the importance of this study, which aimed to test this poetic discourse and the ideas and principles contained in it, included in the theory of postcolonialism.

The study descends into the field of Cultural Studies, which combines literary, cultural, political and ideological, and brings the relationship between the poetic discourse of Faytouri and the principles established by the theory of colonization, taking advantage of the mechanisms of description and analysis.

The study concluded that the poetic discourse of Al-Faytouri contained many of the ideas on which the postcolonial theory was based, represented in the rejection and resistance to colonial oppression and domination, the restoration of African identity and self, and the depiction of the dependent and his transformations.

Keywords: Al-Faytouri, postcolonialism, resistance and rejection, African identity, transformations of the dependent.

المقدِّمة:

تدور هذه الدراسة حول الخطاب الشعري للشاعر السوداني محمد مفتاح الفيتوري، بالنظر إليه في سياق نظرية ما بعد الاستعمار. ذلك أن هذا الخطاب حوى العديد من الأفكار التي قامت عليها هذه النظرية، حيث انتخبت الدراسة أهم المجموعات الشعرية للفيتوري للتطبيق عليها، وهي مجموعته التي حملت العنوان (أغاني افريقيا) الصادرة في العام 1967م، وحوت ثلاثة دواوين، أغاني أفريقيا، وعاشق من أفريقيا، واذكريني يا أفريقيا.

صادف صدور هذه المدوّنة وإبداع قصائدها ذروة المدّ الثوري الذي انتظم أفريقيا والعالم العربي، يستهدف طرد المستعمِر وقيام الدولة الوطنية، فقد انخرط الفيتوري بخطابه الشعري في هذه الثورة، تحرِّكه دوافعه الذاتية في بغض الاضطهاد والاستبداد، ومتأثّرًا بحركة الزنوجة الأفريقية التي ظهرت في أربعينات القرن الماضي، ترفض الاستعمار الغربي وتحيّزاته الثقافية والسياسية. فمن بين ثنايا كتابات أعلام هذه الحركة والأدباء والنقّاد المعاصرين لها بدأت تتشكّل ملامح نظرية نقدية عُرِفت بنظرية ما بعد الاستعمار، اكتملت في تنظيرات أعلامها اللاحقين أمثال إدوارد سعيد، وهومي بابا، وغاياتري سبيفاك. قامت هذه النظرية والخطاب الذي أنتجته على رفض الاستعمار بكافة أشكاله، وسعت إلى إعادة النظر في خطابه السياسي والثقافي والأدبي؛ لما يشتمل عليه من توجهات تخدم أغراض المستعمِر التي تتعارض مع أغراض وحاجات الشعوب المستعمَرة.

جاءت الدراسة في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، المبحث الأول حوى مدخلًا نظريًا يعالج ملابسات ظهور نظرية ما بعد الاستعمار، وأهم أفكارها، وتقديم فكرة دالة عن الفيتوري ومدونته الشعرية. وخصصت الدراسة المبحث الثاني لمعالجة إشكالية الرفض والمقاومة في خطاب الفيتوري الشعري، وتناولت في المبحث الثاني استعادة الهوية الأفريقية، ووقفت في المبحث الرابع على صورة التابع وتحولاته في هذا الخطاب، ثم جاءت الخاتمة تحوي أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة.

تتنزّل هذه الدراسة في حقل الدراسات الثقافية التي تدمج الأدبي بالثقافي والسياسي والإيديولوجي فتقارب العلاقة بين خطاب الفيتوري الشعري والمبادئ التي أرستها نظرية ما الاستعمار، مستفيدةً من آليات الوصف والتحليل.

أما الدراسات السابقة فلم يجد الباحث _حسب ما توفّر له من معلومات_ دراسةً تطبيقيةً قاربت الخطاب الشعري للفيتوري في سياق نظرية ما بعد الاستعمار. لكن هنالك دراسات تلتقي مع هذه الدراسة، كونها بحثت في مدونة الفيتوري الشعرية من منظورات تتماسّ مع المنظور الذي أخذت به هذه الدراسة، من أهم هذه الدراسات:

- مقال بعنوان: أزمة الهوية في شعر محمد الفيتوري، محمّد وهّابي، مجلة أبوليوس، المجلد 9، العدد 10، 2022. وقفت هذه الدراسة على أزمة الهوية في شعر الفيتوري، والتي لم يستطع تحقيقها في انتمائه القُطْري السوداني، ولا في انتمائه العربي، فذهب يبحث عنها في الفضاء الأفريقي. لكن هزيمة 1967م أعادته مرّةً أخرى للواقع العربي.
- قلق الانتماء في الخطاب الشعري للفيتوري، يسن إبراهيم بشير علي، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بغداد، العراق، المجلد 59 العدد 2، 6/15 2020م. تناولت هذه الدراسة قلق الانتماء لدى الشاعر محمد مفتاح الفيتوري وأثره في شعره. هذه الظاهرة التي ظهرت عنده مبكّراً ولازمته في حياته، فأثّرت في سيْرورة إبداعه، وإثراء تجربته في مراحلها وأطوارها المتعددة.

مدخل نظري:

يتناول هذا المدخل، مفهوم نظرية ما بعد الاستعمار، وملابسات نشأتها، ويقف كذلك عند تجربة الشاعر محمد مفتاح الفيتوري، معرّفًا به وبإبداعه الشعري الذي دعا لانتخابه مدونةً لتطبيق أفكار ومبادئ هذه النظرية عليها في هذه الدراسة.

فنظرية ما بعد الاستعمار، هي إحدى النظريات النقدية المهمة التي استقرّت في الآداب العالمية في الربع الأخير من القرن العشرين. جاءت ضمن نظريات ما بعد الحداثة التي تجاوزت المناهج اللسانية المكتفية بسؤال الأدبية، فعمدت إلى إنتاج خطاب نقدي جديد يتجاوز الجمالي إلى البحث في المكوّن الثقافي والإيديولوجي للنصوص والخطابات، ينهض هذا الخطاب بانتقاد ومناهضة التحيّزات المعيارية للمركزية الغربية في الفنون والآدب والثقافة.

سعت هذه النظرية إلى تحليل آثار الاستعمار الأوروبي على الشعوب والثقافات التي خضعت له، والكشف عن آليات الهيمنة الثقافية والفكرية والسياسية التي استمرت حتى بعد انتهاء الاستعمار السياسي. وارتكزت النظرية على فكرة جوهرية مؤداها "تهميش الثقافة الغربية وقيمها"(كارتر، 2010، ص 125). مستفيدةً من المفاهيم الجديدة التي توفّرت عليها الدراسات الإنسانية، خاصة دراسات تحليل الخطاب، فأنتجت أفكارًا غايةً في الأهمية، مثل فكرة (التابع) التي اقترحها أنطونيو غرامشي وتم تطويرها لاحقاً على يد غاياتري سبيفاك وغيرها، وفكرة (التمثيل) عند ميشيل فوكّو، واستراتيجية (التفكيك) لدى جاك دريدا، وفكرته حول "الميثولوجيا البيضاء" المسيطرة التي وجد فيها منظّرو ما بعد الاستعمار الدعمَ الكافي لهجومهم على هيمنة الأيديولوجيات الغربية (كارتر، 2010، ص 125).

أسست هذه النظرية حقلًا واسعًا من الدراسات يغطِّي "كل الثقافات التي تأثّرت بالعملية الإمبريالية من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي" (أشكروفت وآخرون، 2005، ص 25)، فأظهرت اهتمامًا بالغًا بهذه الثقافات، وأبرزت مواضع المفارقة فيها، ونزعة المجايلة التي اكتنفتها فجعلت منها منتجات ثقافية مغايرة حتى إن كُتب الكثير منها بلغات الغرب الاستعماري. حيث تؤكّد هذه النظرية على التوتّر القائم بين هذه الآداب والثقافات وآداب وثقافات الحواضر الاستعمارية الغربية. ذلك أن الذي يجمع بين هذه الآداب قواسم مشتركة كثيرة، أهمها "أنها ظهرت بشكلها الحالي في أعقاب تجربة الاستعمار. وأكّدت نفسها من خلال إبراز التوتُّر مع القوة الإمبريالية، وبالتركيز على ما يميزها عن فرضيات المركز الإمبريالي. وهذا بالضبط ما يجعلها آداباً ما بعد استعمارية" (أشكروفت وآخرون، 2005، ص 26). لذلك فإن ما تقوم به آداب هذه الشعوب المستعمَرة يعد نوعًا من الردّ بالكتابة يسعى لتفكيك المقولات الغربية. وتطرح هذه الآداب في الوقت نفسه تساؤلات تتعلّق بعمليات الإزاحة، والتهجين الثقافي، وحول التوسعية الإمبريالية التي تتصرّف تجاه هذه الشعوب وثقافاتها كأنها ما تزال خاضعة لها.

المفارقة أن هذه النظرية التي تنتقد الممارسات الثقافية الغربية خرجت من رحم المؤسسات الأكاديمية الغربية، فقام عليها مفكّرون وباحثون يعملون في المؤسسات الأكاديمية الغربية، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، جاء أغلبهم من شعوب خضعت للتجربة الاستعمارية الغربية الحديثة، أمثال إدوارد سعيد، وهومي بابا، وغياتري سبيفاك الذين يعدّهم البعض المثلث الذهبي لهذه النظرية.

بالرغم من أن نشأة هذه النظرية ارتبطت بصدور كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد في العام 1978م، الذي قدّم فيه نقدًا منظمًا للتمثيلات الغربية عن الشرق، تلك التي تقوم وفق مبدأ التعارض بين قطبين مختلفين، يقوم فيهما الغرب "مقام القطب الذكوري التنويري، العقلاني، الملتزم، المنظّم، بينما يحِلُّ الشرق في قطبه الأنثوي المقابل اللا عقلاني، السلبي، اللا منظّم، الشهواني" (بيرتنز، 2013، ص 324)، إلا أن هنالك العديد من الجهود التي قام بها باحثون ومبدعون سابقون مهدت السبيل لهذه المرحلة، منها على سبيل التمثيل جهود فرانز فانون خاصة في كتابه (معذبو الأرض)، وجهود أعلام حركة الزنوجة، إيمي سيزار، وليوبولد سنغور، ومحمد مفتاح الفيتوري، وجهود آخرين، أدباء ومفكرين أمثال النيجيريان شينوا أتشيبي، وول سوينكا، والكيني نغوجي واثينغو، وغيرهم.

قامت هذه النظرية على جملة من المبادئ أرست من خلالها مرتكزات فكرية وإشكالات بحثية، منها: رفض وتفكيك الخطاب الاستعماري، استعادة الهوية الثقافية واللغات المحلّية، وعي الذات والآخر، والاستقلالية والتحرر، والمقاومة عبر الرد بالكتابة، ورفض الاستعمار الجديد بكافة أشكاله السياسية، والثقافية، والفكرية، وغيرها.

أما محمد مفتاح الفيتوري (1930– 2015م)، الشاعر السوداني الذي تنقّل بين السودان ومصر وليبيا. فقد عرُف بصوته الشعري المختلف في خارطة الإبداع العربي، فمنذ إصدار ديوانه الأوّل (أغاني أفريقيا)، وما أعقبه من أعمال (عاشق من أفريقيا، اذكريني يا أفريقيا، وأحزان أفريقيا (سولارا))، أظهر اهتمامًا بالغاً بأفريقيا التي وجد فيها ضالته، فصوّر مأساتها الخاصة مع الاستعمار الغربي الذي سام إنسانها ذلّا ومهانةً واسترقاقًا، حتى صار بهذا الفعل يمثِّل خير تمثيل صوت الزنوجة في الشعرية العربية، وكان هذا مدخله ليدرج خطابه الشعري ضمن المدونة الإبداعية التي أرست مبادئ نظرية ما بعد الاستعمار في شقها الإبداعي.

إن انصراف الفيتوري عن الواقع العربي وتيممه شطر أفريقيا لم يكن هروبًا أو تهويمًا، وإنما كان استجابةً لواقع يعيشه، فمنذ طفولته الباكرة وشبابه أدرك انتماءه الأفريقي، وهو انتماءٌ ذو طبيعة إثنية عاطفية، فخلال إقامته في تلك المرحلة من حياته في مدينة الإسكندرية ذات الأغلبية الأوربية البيضاء، كانت بشرته السوداء "تقيم بينه وبين المدينة التي يحيا فيها حاجزاً كثيفًا يحرمه المشاركة والاندماج" (الفيتوري، 1967، ص 8)، كما يقول محمود أمين العالم. لذلك وجد الفيتوري في أفريقيا الملاذ الذي يبحث عنه، وخلاصه الذاتي، وهويته المفقودة، ووطنه الذي شيّده بألحان المأساة، والأمل الجَسور، ذلك أن أفريقيا بعد منتصف القرن العشرين كانت مزيجًا من الآلام والآمال، حيث لم تكن استعمارًا خالصًا، وأرض صيد للعبيد، وإنما كانت بجانب ذلك منبتًا لحركات التحرر التي نشطت في مقاومة المستعمِر. من هنا جاء تعلُّق الفيتوري بها، فهي التي أخرجته من حالة الضياع والعذاب، وألهمته الشعر والغناء، كما يقول:

لكنني منذ مشت عواصف الحنين في دمي/ ومنذ أزهرت براعم الكلام في فمي/ ومنذ انطلقتُ ضائعًا مشرّدًا/ كنتِ عذابي.. أنتِ يا أفريقيا/ وكنتِ غربتي التي أعيشها/ وشئتُ أن أعيشها/ وحينما غنيتُ.. غنيتُ لعينيكِ/ ومسّت شفتي في ولهٍ رموشها/ حينذٍ رأيتُ فيهما توهّج الألم/ رأيتُ فيهما العذاب والشموخ والشمم (الفيتوري، 1967، ص 139).

في أفريقيا صنع الفيتوري نفسه من جديد، حيث وجد في حركات التحرر ذات الطابع السياسي، وحركة الزنوجة ذات الطابع الثقافي الأدبي مبتغاه، فانخرط في مقاومة المستعمِر، وأفرغ غضبه فيه، موظفًا إبداعه الشعري في هذه المقاومة، رافضًا للوجود الاستعماري وآثاره.

برزت في خطاب الفيتوري الشعري خاصة في مرحلته الأفريقية، جملة من الأفكار التي تأسست عليها نظرية ما بعد الاستعمار، وأضحت هذه الأفكار قضايا بحثية، وموضع نقاش مستمر في الخطاب ما بعد الكلونيالي، تمثلت هذه القضايا في المباحث التالية:

الرفض والمقاومة في الخطاب الشعري للفيتوري:

جاء في تقديم كتاب (دراسات ما بعد الكلونيالية: المفاهيم الرئيسية) ما نصّه "التحرير الحقيقي للأرض، والتقويض الحقيقي للاستعمار يتأتّى عندما يتحوّل المروّي عنه إلى راوٍ... فيتوازى بذلك تحرير الأرض والكلمة على حدٍّ سواء، ويصبح من كتب دراسةً كأنه حرر وطنًا" (أشكروفت وآخرون، 2010، ص 11). فإذا كان مصطلح (ما بعد استعماري) يستخدم في عمومه ليدلّ على مناهضة الاستعمار، والدعوة إلى الاستقلال (أشكروفت وآخرون، 2010، ص 286). فإن الخطاب ما بعد الاستعماري بكافة أشكاله النقدية والإبداعية والفنية، لا بد أن يكون خطاباً نقديًا يقاوم الاستعمار وآثاره، ويرفض خطاباته وتحيّزاته. لذلك اكتسبت الكتابة في ظله "صبغةً تفكيكيةً تروم تقويض الأُسس التي قامت عليها مشروعية الاستعمار الغربي، وتستهدف بنية خطاباته بحمولاتها الثقافية والمعرفية" (بشير، 2015، ص 177–209). من هذا المنطلق يعدُّ شعر الفيتوري خطابًا نقديًا يجسِّد الرفض والمقاومة، ذلك أن هذا الخطاب منذ كلماته الأولى التي نطق بها نطق لمجابهة العنصرية، والهيمنة الاستعمارية، والاستبداد، فتعددت فيه أشكال الرفض والمقاومة. وصارت الكلمة لدى الفيتوري فعلاً تحرريًا، والشاعر لديه يبقى دومًا مناضلًا بالكلمة. ولعّل أوّل مظاهر هذا الرفض تمثّلت في رفضه للتمييز على أساس اللون أو العِرق، يقول:

آن لهذا الأسود.. المنزوي/ المتواري عن عيون السنا/ آن له أن يتحدّى الورى/ آن له أن يتحدّى الفنا/ فلتنحن الشمس لهاماتنا/ ولتخشع الأرض لأصواتنا (الفيتوري، 1967، ص 27).

هذا الأفريقي الذي حاول الاستعمار دفنه في رمال العنصرية والتبعية، بالتقليل من شأنه، وبإفقاده الثقة في نفسه، ها هو الفيتوري يستنهضه ليواجه العالم، ويدافع عن خياراته في الحياة. لقد آن لهذا الشعب الذي ذاق الويلات على يدِ المستعمِر الذي جعل منه سلعةً ووسيلة إنتاج ليس غير، آن له أن يثور ويطوي هذه الحقبة البائسة، ويعود إلى تاريخه النضالي الطويل المليء بالبطولات والأمجاد:

الملايين أفاقت من كراها/ ما تراها ملأ الأفق صداها/ خرجت تبحث عن تاريخها/ بعد أن تاهت على الأرض وتاها/ حملت أفؤسها وانحدرت من روابيها/ وأغوار قراها (الفيتوري، 1967، ص 35).

فالمقاومة لدى الفيتوري هي رحلة وعي بالذات السوداء، واستعادة كرامتها التاريخية، وهي دعوة جهورة للحرية لا تني ولا تتوقّف.

ومن منطلق رفض الفيتوري للعنصرية والتمييز جاء رفضه القوي للاستعمار، وللعبودية، وكافة أشكال التبعيّة، سياسية كانت أم ثقافية، أم اجتماعية. وهكذا تتحوّل صورة الزنجي المقهور التي

فرضها الاستعمار إلى صورة الإنسان الواعي المقاوِم في شعر الفيتوري، الإنسان كامل الأهلية التي تخوّله البحث عن حريته، والتضحية من أجلها. فانتفت لدى الفيتوري صورة أفريقيا المُظلمة البائسة التي أظهرتها قصيدته (أحزان المدينة السوداء)، تلك التي توالت فيها الصُور التشبيهية التي تدلُّ على العجز، والارتهان للخرافات والأساطير:

عجوز ملفّعةٌ بالبخور/ وحفرة نارٍ عظيمة/ ومنقار بومة/ وقرنُ بهيمة/ وتعويذةٌ من صلاةٍ قديمة/ وليلٍ كثير المرايا/ ورقصةِ سودٍ عرايا/ وغيبوبةٍ من خطايا (الفيتوري، 1967، ص 21).

لتبرز بدلًا عنها صورةٌ أخرى مفعمةٌ بالحياة والأمل، كما في قصيدته (الطوفان الأسود) تلك التي تكشف عن وجه جديدٍ لهذه القارة البكر، حيث القوة والجبروت والنضال الحي من أجل الحرية والحياة الكريمة، فبرزت فيها صورٌ استعاريةٌ تشعُّ منها الحياة، وينبثق من بين ثناياها النور، وتشرق فيها شمس العزيمة والإصرار على الفعل والإنجاز:

كذلك عشتِ ألوف السنين/ تخرّين، فوق خطايا وثن/ إلى أن تسلل ضوء الصباح إليك/ فمزّقتِ عنك الكفن/ وقمتِ كماردةٍ تتلقّى الضُحى/ وتحوِّل مجرى الرياح/ وتحفر تاريخها من جديد/ على جبهة الشمس حفر الجراح (الفيتوري، 1967، ص 48).

ما يفعله الفيتوري هنا هو قلبٌ لتلك الصورة البائسة التي رسمها المستعمِر، للقارة الأفريقية، وإنسانها العاجز إلى صورةٍ رامزةٍ للحياة والحرية والبطولة. وبهذا الخطاب يعمد الفيتوري إلى تفكيك الخطاب الاستعماري الذي ظل يعمل على ترسيخ دونية الإنسان الإفريقي، فيعيد كتابة الذات الأفريقية كذات فاعلة لا مفعول بها، قادرةٍ على صناعة التاريخ وإنتاجه من جديد.

استعادة الهوية الأفريقية في الخطاب الشعري للفيتوري:

كانت إشكالية الهوية واستعادتها واحدةً من أهم القضايا التي قامت عليها نظرية ما بعد الاستعمار، وحاضرةً بقوة في نقاشات منظّريها. فأمر الهوية وضياعها، والسعي الدؤوب إلى استعادتها كان أكبر هموم المستعمَرين السابقين، ذلك أن الاستعمار كما فهمه أعلام هذه النظرية لم يكن مجرّد غزوٍ عسكري، أو استغلال اقتصادي، بل هو فوق ذلك كان مشروعًا للهيمنة الثقافية، وعملًا منظّمًا لتشكيل هويات الشعوب المستعمَرة على النحو الذي يرغب؛ ليجعل من هذه الشعوب تابعةً له، ولا ترى ذاتها ولا تعرّفها إلا من خلال الشروط الثقافية للمستعمِر. هذا بالضبط ما حدث في أفريقيا، فمنذ أن وطأ المستعمِر أرضها أخذت تفقد قدرتها على الاتصال بثقافاتها، والاحتفاظ بلغاتها المحلية، حيث أخذ المستعمِر في هذه القارة يمارس سياسة واعية تهدف إلى قطع الصلة بين

الشعب الأفريقي وبين الوسائل التي يتعرّف بها على هويّته الذاتية. وقد تمّت هذه العملية وفق مستويْين كما يقول نغوجي واثينغو "التدمير والحطّ المتعمّد لثقافة شعب، لفنّه، لرقصاته، لديانته، لجغرافيته، لتعليمه، لمرويّه وأدبه، والإعلاء الواعي من شأن لغة المستعمِر" (واثينغو، 2011، ص 43). فقد كان المستعمِر يدرك أنّ التحكّم في الفعل الثقافي يعني التحكّم في عقل المستعمَر، يقول واثينغو "كان تحكّم لغات الأمم المستعمِرة بلغة شعبٍ حاسماً، للتحكُّم بالعِلم الذهني للمستعمَر" (واثينغو، 2011، ص 43).

لهذا جاء خطاب الفيتوري الشعري، بوصفه خطاباً رافضاً للهيمنة الثقافية والتغريب، جاء مناديًا بضرورة أن تبحث أفريقيا عن هويّتها الخاصة، ولو أدّى بها إلى ربط هذه الهوية بلون البشْرة أو الأصل العِرقي، فقبول الذات الزنجية لا بوصفها نقصًا، بل مصدر فخر وخصوصية، هو أوّل عتبةٍ لاستعادة الهوية المفقودة، هذا ما دعتْ إليه حركة (الزنوجة)، وبرز بوضوح في شعر الفيتوري:

قلها لا تجبن.. لا تجبن/ قلها في وجه البشرية/ أنا زِنجي/ وأبي زنجيُّ الجد../ وأمي زنجية.. / أنا أسود/ أسودٌ لكني حرٌّ أمتلك الحرية (الفيتوري، 1967، ص 38).

وقد أخذ خطاب الفيتوري الشعري يحاجج بامتلاكه ذاتًا خاصةً به، ويمتلك مكانًا خاصًا به هو هذه القارة الأفريقية، أرض الزنوج السود، مهما علا صوت المستعمِر وادّعى أنّها كانت أرضًا فراغًا، أو في أيدٍ خاملة ليست جديرة بها، ومن حقّه استغلالها، يقول الفيتوري:

أنا زنجيٌّ/ وأفريقيتي لي لا للأجنبيّ المعتدي/ أنا فلاحٌ ولي أرضي /التي شربت تربتها من جسدي/ أنا إنسان ولي حريّتي/ وهي أغلى ثروةٌ من ولدي/ أنا حرٌّ مستقل البلدِ/ وسأبقى مستقلّ البلد (الفيتوري، 1967، ص 36).

لذلك أصبح أمر استعادة الهوية أثناء الاستعمار وبعد الاستقلال، فعلًا مقاومًا تبنّته حركات التحرر بكافة أشكالها السياسية والثقافية والأدبية، هادفةً من وراء ذلك إلى إعادة تعريف ذاتها خارج الأُطر التي رسمها لها المستعمِر، ولا يكون ذلك إلا بالارتباط بالأرض وبالتاريخ وبالتراث. يقول الفيتوري:

أنا لا أملك شيئًا غير إيماني بشعبي/ وبتاريخ بلادي/ وبلادي أرض أفريقيا البعيدة/ هذه الأرض التي أحملها ملء دمائي/ والتي أنشقها ملء الهواء/ والتي أعبدها في كبرياء.../ هذه الأسطورة الكبرى بلادي (الفيتوري، 1967، ص 58).

إذا كان بعض نقّاد ما بعد الاستعمار المتأخرون أمثال هومي بابا يرون في الهوية بوتقة تنصهر فيها ثقافة المستعمِر والمستعمَر معًا؛ لينتج عن هذا الالتقاء والانصهار هويةٌ هجينٌ، فإن نقّاداً

آخرين يرون غير ذلك، خاصة أولئك المتقدّمين، أمثال فرانز فانون، وإيمي سيزار. ففي كتابه (خطاب عن الاستعمار) الصادر في العام 1955م، يرى سيزار "أنه ليس ثمة تواصل إنساني بين المستعمِر والمستعمَر، بل تقوم بينهما علاقات أساسها الهيمنة والخضوع، فتحوّل المستعمِر إلى رقيب على فصل دراسي، ورقيب في الجيش، وحارس سجن، وسائق عبيد، وتحوِّل المواطن الأصلي إلى وسيلة من وسائل الإنتاج" (بيرتنز، 2013، ص 325). وقد رأى فرانز فانون أن المستعمِر لكي يحقق الضياع الحضاري والثقافي للمستعمَرين، أقام سياسته على بذر الشكوك في نفوسهم حول ذواتهم الثقافية التي لم يكن لها وجود قبل مجيئه، _حسب زعمه_. وإنه لم يأتِ إلا لانتشالهم من هذا الواقع الذي كانوا يعيشونه (فانون، د.ت، ص 130).

ويبدو أن الفيتوري كان من المؤمنين بهذا الرأي الأخير، لذلك حين يرحل إلى نيويورك لا يراها بما فيها من عمران ومؤسسات أممية سوى رمز للقهر، وغابة للموت، فهو لذلك لا ينتمي إلى هذه الحضارة التي تهين الإنسان وتذلّه، وتفقده الشعور بوجوده الفيزيقي أو الثقافي، ولا تحترم كينونته وإنسانيته:

نيويورك.. ملء عروقي كآبة/ وعيناك فوق ثراك سحابة/ ولستِ بلادي/ ولا قلبك المتحجّر قلبي/ ولا أنت في وهج الشعر دربي/ فأفريقيا موطني، والزنوج المساكين شعبي...

نيويورك يا غابة الموتِ.. ملعونة كيف كنتِ (الفيتوري، 1967، ص 225).

ونيويورك هنا ليست سوى رمزٍ للإمبريالية الجديدة التي تقتات على حياة الآخرين، وتصنع مجدها على هياكلهم وأجسادهم.

إذا كانت اللغة تؤدّي دورًا مهمّا في بلورة الهوية الثقافية للشعوب، وهي كما يراها بعض الباحثين "ليست مجرّد وسيلة لتوصيل الأفكار عن العالم، بل أداةٌ لجعل العالم موجوداً في المقام الأوّل" (لاندو، 2007، ص12). فقد ارتبط الأدب الأفريقي بظاهرة تبدو غريبة تجعل من كاتبيه منفيين في لغتهم، وهي تبنّي هؤلاء الكتّاب لغات المستعمِرين _إنجليز، فرنسيين، برتغاليين_ التي احتكرت التعبير الأدبي أو كادت، حتى بعد رحيلهم. بيد أنّ الخطاب الشعري للفيتوري شذَّ عن هذه القاعدة، التي لم يتوفّر عليها إلا القليلين من المبدعين الأفارقة، فأفلت من لغة المستعمِر، وكتب شعره وأدبه باللغة العربية، وهي ليست لغة أجنبية على أفريقيا، حيث يربو وجودها التاريخي على الألف عام. وقد كان الأديب الكيني الكبير نغوجي واثينغو يرفض تقسيم أفريقيا على أساس ثقافي أو إثني إلى شقين، أفريقيا جنوب الصحراء وأفريقيا شمالها، بوصف هذا التقسيم حيلة استعمارية هدفها تقسيم أبناء القارة الواحدة، ويرى أفريقيا قارةً واحدةً، وكل لغاتها أفريقية، ومن بينها العربية، يقول "إن الحضارة العربية التي يبلغ عمرها قرونًا لها تأثير هائل في أدب شمال أفريقيا الحديثة، وفي أجزاء

عديدة من القارة. وقد حرَّم مربُّونا الاعتراف بهذا التأثير، وأهملوا أدب شمال أفريقيا والعالم العربي" (واثينغو، 2011، ص 180). فالفيتوري إذن حمل اللغة العربية ودخل بها إلى عمق أفريقيا، وقضاياها السياسية والإنسانية، وهو إذ يقوم بهذا الفعل يقوم به بوصفه مقاومةً ثقافيةً، وجزءًا من استعادة الهوية الأفريقية، بتحريرها من سلطة اللغات الأجنبية التي هيمنت على الخطاب الإبداعي والثقافي فيها. فأفريقيا الحرّة كما يقول نغوجي واثينغو يجب أن تسترد "اقتصادها، سياستها، ثقافتها، لغاتها، وكتّابها الوطنيين جميعًا" (واثينغو، 2011، ص 12).

صورة التابع وتحولاته في الخطاب الشعري للفيتوري:

مصطلح التابع (The Sub-altern) من المصطلحات المهمة التي استقرّت في خطاب ما بعد الاستعمار، ويطلق على الفئات المهمّشة والمستَضعفة التي لا صوت لها داخل النظام الاستعماري أو ما بعده. استخدم هذا المصطلح المفكّر الإيطالي أنطونيو غرامشي، (1891_1937) الذي وظّفه ليشير به إلى "الجماعات التي تقع تحت هيمنة الطبقات الحاكمة داخل المجتمع" (أشكروفت وآخرون، 2005، ص 319). وكان هدفه من ذلك هو إسماع صوت أولئك المنسيين الذين لا صوت لهم في المجتمع، ولا يملكون موقعاً في الخطاب الرسمي، ولا يستطيعون تمثيل أنفسهم إلا من خلال من ينوب عنهم، حيث يخضعون لسلطة الجماعات المهيمنة التي عادةً ما تحقق وجودها التاريخي من خلال سيطرتها على الدولة. وطالما أن هذه الجماعات المهمّشة ليس متاحًا لها الوصول إلى الوسائل التي تمكِّنها من تمثيل نفسها، فإن الانتصار التامّ الذي يستهدف تعديل النظام الطبقي وحده هو الذي "يستطيع كسر هذا النمط من التبعيّة" (أشكروفت وآخرون، 2005، ص 319).

نقلت غاياتري سبيفاك هذا المصطلح إلى حقل الدراسات النقدية في مقالها الشهير (هل يستطيع التابع أن يتكلّم؟)، هذا السؤال الذي صِيغ به عنوان المقال لم يكن بسيطًا وإنما سؤالًا معقّدًا، قصدت به سبيفاك تجريد التابع من حق التمثيل الثقافي والسياسي، ذلك لأن صوت التابع الحقيقي غالبًا ما يتمّ تغييبه، وأي خطاب عنه سيُعاد إنتاجه من خلال سلطة المتكلم، سواءً كان ممثلها المستعمِر أو الرجل في المجتمع الذكوري. مع أن التابعين "إذا أُتيحت لهم الفرصة... يمكنهم الكلام" (سبيفاك، 2020، ص 47).

أما في الخطاب الشعري للفيتوري، فيبدو أنه سبق تساؤل سبيفاك في تقديمه صورة مختلفة للتابع الذي يظهر صوته في هذا الخطاب مستعصياً على القمع، ومحاولات الإسكات، ويثبت أنه قادر على الكلام بلغته الأصلية، وذاكرته التاريخية، ووعيه الذاتي، فيُظهر الفيتوري في خطابه الشعري

صوتًا منحازًا إلى التوابع الذين يرى نفسه واحدًا منهم. لكن صورة هذا التابع أخذت أشكالًا متنوِّعة، ومرّت بتحوّلات عديدة.

فصورة التابع قد تكون لدى الفيتوري المستعمَر، أو العبد المسترقّ، وقد تكون الفلاح البسيط، وقد تكون المنفيُّ المطرود، وما إلى ذلك. يقول الفيتوري في قصيدته الفذّة (حدث في أرضي) التي يصوّر فيها كيف يستغلّ المستعمِر القادم من وراء البحار أفريقيا إنسانًا وخيراتٍ وتاريخًا، فيعبئهم في سفنه إلى حيث بلاده البعيدة، وبناء حضارته الناهضة:

ذات يوم لم يزل يزحم أيام وجودي/ وقفت أرضي ترنو للمقادير حزينة/ وقفت مطرقة الرأس مهينة/ ورأت في نظرةٍ واحدةٍ أو نظرتين/ سفنًا تزحم أعماق البحار النازحة/ سفنًا تغدو وأخرى رائحة/ سفنًا مكتظةً بالأسلحة/ وبأبناء بلادي/ وبخيرات بلادي/ وبتاريخ بلادي (الفيتوري، 1967، ص 60).

ويقول في قصيدةٍ أخرى يصوّر فيها المفارقات بين حال الإنسان الأفريقي صاحب الأرض والتاريخ، وبين المعتدي المستعمِر الذي حوّل سكان هذه القارة إلى ضحايا وسبايا:

الليل/ ليل العبيد المتوّجين العرايا/ القابعين تماثيل/ فوق أرض الخطايا/ الآثمين.. النبيين/ القاتلين.. الضحايا/ مثْلي ومثلك/ نحنُ المسوخ.. نحن السبايا (الفيتوري، 1967، ص 63).

أما صورة التابع المنفي المطرود من أرضه، فتظهر في قصائد عديدة، من بينها قصيدته المشهورة (عندما يتكلم الشعب):

بالأمس والسوط يعدو خلفي، ويوهن صوتي/ عانقتُ أرضي وفارقتها بحزنٍ وصمتٍ/ وعشتُ وجهًا غريبًا، مشرّدًا، نصف ميْتِ/ حتى إذا متُّ قبّلتُ تربها رغم موتي (الفيتوري، 1967، ص 136).

أما التحوّلات التي مرّت بها صورة التابع في الخطاب الشعري للفيتوري فعديدة، تبرز في النصوص الشعرية التي يظهر فيها الشاعر معبّرًا عن قضايا التابعين من الزنوج والمقهورين، وناطقًا باسم الذات الأفريقية التي أُسقطت من كيانها الإنساني ومن التاريخ. واستخدم الفيتوري الكثير من الأدوات لتجسيد هذه التحوّلات والتمثيلات، فيلجأ للرموز تارةً، الزنجي، القيد، السوط، المنفي، ويلجأ تارة إلى استلاف صوت الجماعة (النحن)، وقد يوظّف الأساطير أو يصنعها لتصوير حالات الوعي التي يمرّ بها التابع، وتحوّله من مضطهدٍ عاجز إلى ماردٍ يواجه العالم، ويتحدّى الظالم، ويقهر الظروف والأقدار المرسومة له.

في بداياته كان الفيتوري حين يكتب عن (التابع) فهو يكتب من موقع المتسائل الذي يصرخ محتجًّا في وجه الظالم المستعمِر رافضًا العنصرية والاستعباد. ففي قصيدته (أغاني أفريقيا) التي اتّخذ

منها عنوانًا لأوّل إصداراته الشعرية، يصوّر فيها الفيتوري التابع المستعمَر (العبد) الذي يبحث عن إنسانيته وكرامته، من تحت ركام الظلم والاضطهاد، ونعل السيّد المستعمِر:

جبهة العبدِ.. ونعل السيِّد/ وأنين الأسود المضطهدِ/ تلك مأساة قرون غبرت/ لم أعد أقبلها لم أعدِ/ كيف يستعبدُ أرضي أبيضٌ/ كيف يستعبدُ أمسي وغدي/ كيف يخبو عمري في سجنه/ وجدار السجن من صنع يدي (الفيتوري، 1967، ص 36).

فالتابع هنا رغم القهر الذي يتعرّض له، ورغم الإذلال ومحاولات الترويض القاسية إلا أنه لم يستكن، فلا يقبل أن يبقى موضوعًا للرثاء، بل ذاتًا ناطقةً تأبى القهر، وتعلن التمرد، لتتحوّل إلى رمز للتحرر الإنساني.

في مرحلة لاحقة يتطوّر التابع، ويتحوّل من حالة الوعي بالقهر إلى حالة الوعي بالذات، تلك يعانق فيها التابع هويته، **(أنا زنجيٌّ/ وأفريقيتي لي لا للأجنبيِّ المعتدي)** (الفيتوري، 1967، ص 36)، ويستعيد في هذه المرحلة أرضه التي يمتزج بها امتزاج الماء بالتربة:

صوتك يا أفريقيا/ هذا الذي يهزّني هزّ الأعاصير صداه/ أُحبّه.. وهو انفعالٌ.. / ودمٌ يغلي.. وثورةٌ مطبقة الشفاه/ أحبه وهو خطىً عاريةً/ تحفر في الأرض مقابر الغزاة/ أحبه لأنه صوتي أنا/ صوتك يا أفريقيا/ صوت الإله (الفيتوري، 1967، ص 142).

هكذا يتحول التابع من ضحية مقهورةٍ إلى رمز للقوة والرضى عن الذات، حيث يبرز صوت الحكمة والرشد.

مع مرور الوقت تنضج تجربة الفيتوري، وتتسّع رؤيته للحياة، فيتبيّن طبيعة الصراع فيها، فينتقل بخطابه الشعري نحو أفق إنساني، فيختفي الصوت الغاضب تدريجيًا، ويظهر الصوت الواثق الذي يقدّس الحريّة، ويهزم المعتدي، وينتصر على أحقاد النفس، وحالة الضعف والهوان. كما جاء في قصيدته (حصاد شعب)، يقول:

ولقد هدمنا كل ما في الأمس من سجنٍ وقيْد/ ولقد هزمنا كل ما في الأرض من ضعفٍ وحقدِ/ ولقد عقدنا في طريق نضالنا أكليل وردِ/ يا ملهم الشعراء، أروع شعرهم يوم التحدِّي/ ماذا أقدمه إليك/ وأنت كل الشعر عندي (الفيتوري، 1967، ص 227).

الخاتمة:

تعدّ نظرية ما بعد الاستعمار واحدةً من أهم وآخر النظريات التي استقرّت في الدراسات النقدية في نهاية القرن العشرين. وقد أرست هذه النظرية أُسسًا ومبادئ تقوم على رفض الاستعمار، ومقاومة آثاره السياسية والثقافية. وقد سعت هذه الدراسة إلى اختبار خطاب الفيتوري الشعري من خلال مجموعته الشعرية (أغاني أفريقيا) على هذه الأسس والمبادئ. فتوصّلت إلى النتائج التالية:

- أظهرت الدراسة أن خطاب الفيتوري الشعري بما عُرِف عنه من بُعد ثوري، حوى الكثير من الأفكار والمبادئ التي عالجتها نظرية ما بعد الاستعمار، من أهمّ هذه المبادئ، الرفض والمقاومة، واستعادة الذات والهوية الأفريقية، وإبراز صوت التابع وتحولاته.
- جاء خطاب الفيتوري الشعري مجسِّدًا للرفض والمقاومة. فهذا الخطاب منذ بداياته الأولى كان رهن الظروف التي أحاطت بمبدعه من سخرية وانتقاص، فسعى إلى مجابهة كافة مظاهر الاضطهاد من عنصرية، وهيمنة استعمارية، واستبداد، فتعددت فيه لذلك أشكال الرفض والمقاومة حتى صارت الكلمة لدى الفيتوري فعلاً ثوريًا تحرريًا.
- برزت في خطاب الفيتوري الشعري إشكالية الهوية وسعْي الشعوب المستعمَرة إلى استعادتها بعد أن عمد المستعمِر إلى إنكارها وتشويهها، خاصةً في أفريقيا، وهي واحدةً من أهم المبادئ التي قامت عليها نظرية ما بعد الاستعمار. لذلك جاء خطاب الفيتوري يؤكّد على الهويّة الأفريقية التي تقوم على الاحتفال بالأصل الزنجي، وإحياء ذاكرة المكان والأرض، واستدعاء الذاكرة التاريخية للشعوب الأفريقية، واستخدام اللغة العربية وسيلةً لإبداعه بوصفها لغة أفريقيةً، ما جعل من عمله هذا مقاومةً ثقافيةً.
- من القضايا التي عالجتها نظرية ما بعد الاستعمار، وظهرت في الخطاب الشعري للفيتوري، صورة التابع وتحولاته، والتي اتّسمت بالتعدُّد والتنوّع. فأهمّ ما ميّز هذه الصورة، أن صوت التابع بدا في هذا الخطاب مستعصياً على القمع، ومحاولات الإسكات، وإثبات أنه قادر على الكلام بلغته الأصلية، وذاكرته التاريخية، ووعيه الذاتي. فهو لا يقبل أن يكون موضوعًا للرثاء، بل ظلّ يتطلّع إلى أن يكون ذاتاً ناطقة، تأبى القهر، وتعلن التمرد، حتى تحوّل هذا التابع إلى رمز للتحرر الإنساني الشامل.

المصادر والمراجع:

- أشكروفت، ب، وآخرون. (2010). دراسات ما بعد الكولونيالية: المفاهيم الرئيسية. ترجمة: أحمد الروبي، وأيمن حلمي وعاطف عثمان. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- أشكروفت، ب، وآخرون، (2010). دراسات ما بعد الكولونيالية: المفاهيم الرئيسية. ترجمة: أحمد الروبي، وأيمن حلمي وعاطف عثمان. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- بشير، ي. (2015). الخطاب ما بعد الاستعماري في النقد الأفريقي: قراءة في كتاب تصفية استعمار العقل لنغوجي واثينغو. مجلة دراسات أفريقية بجامعة أفريقيا العالمية. عدد (54). 177-209.
- سبيفاك، غ. (2020). ط1. هل يستطيع التابع أن يتكلّم. ترجمة: خالد حافظي. الجبيل: صفحة سبعة للنشر والتوزيع.
- فانون، ف. (د.ت). معذبو الأرض. ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي. بيروت: دار الطليعة.
- كارتر، د، (2010). النظرية الأدبية. ط1. ترجمة: باسل المسالمة. دمشق: التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
- لاندو، م. (2007). نقلاً عن مقال بعنوان: (دور اللغة في التنميط والتعصُّب للهويّة)، لفالح شبيب العجمي. سلسلة مقاربات في اللغة والأدب. الرياض: إصدار جامعة الملك سعود.
- محمد الفيتوري، م. (1967). أغاني أفريقيا. بيروت: مطبوعات دار مكتبة الحياة.
- هانز بيرتنز، هـ، (2013). النقد والنظرية ما بعد الكولونيالية. ترجمة: عمرو زكريا. فصول. 87-88. 316-333.
- واثينغو، ن، (2011). تصفية استعمار العقل. ترجمة: سعدي يوسف. دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.

Stardom University

STARDOM UNIVERSITY

Stardom Scientific Journal of Humanities and Social Studies

- Stardom Scientific Journal of Humanities and Social Studies -

Issued quarterly by Stardom University

3rd issue- 3rd Volume 2025

ISSN 2980-3772